٥ ـ الاسلام والفنون الجميلة

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

ولقد حرم القرآن الكريم الصور المجسمة التي تتخذ للعبادة « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » والأنصاب هي الأصنام التي تعبد من دون الله كما ذهب إلى ذلك المفسرون. أما التصوير باعتباره أحد الفنون الجميلة، فلم يتعرض له القرآن بشيء بينما تناولته كتب السنة المعروفة بشيء من التفصيل إذ ورد بشأنه نحو مئة وسبعين حديثاً: طائفة منها تنص على لعن المصور، وطائفة تمنع بيع الصور، وطائفة تذكر أن أصحاب الصور يوم القيامة يعذبون، وطائفة تبين إثم من يصنع الصور، وطائفة تحظر استعمال ثوب فيه تصاوير، وطائفة تشير إلى أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، وطائفة أباحت تصوير ما ليس فيه روح، وطائفة رخصت في التصوير على الوسائد وما أشبهها

ويجمع علماء الدين الإسلامي على حرمة الصور المجسمة ما لم تكن صغيرة تتخذ لعباً للأطفال أو ناقصة الخلقة لا تستطيع أن تعيش إن قدر ونفخت فيها الروح. أما الصور المسطحة، فقد انقسموا حيالها إلى قسمين: قسم يرى حرمتها، وقسم يرى إباحتها. ويشك المستشرقون في صحة الأحاديث التي تنص على حرمة التصوير ويرون أنها مكذوبة على النبي افتعلها فريق من الفقهاء تحت تأثير اليهود الذين اعتنقوا الإسلام — والتوراة تنهى عن التصوير كما بينا آنفاً — أو ترغيباً في التقشف والبساطة في العيش وتنفيراً من الإقبال على الترف، أو كراهتهم للتصوير نفسه باعتباره من أسلحة السحر. ويرى هؤلاء المستشرقون تبعاً لذلك أن النبي لم يكره الصور ولم ينه عن اتخاذها، وأن تحريمها لم يظهر إلا بعد وفاته بنحو قرن ونصف عند ما أخذ الفقهاء يجمعون الأحاديث النبوية

ويقف علماء الآثار من هذا الموضوع موقفين متناقضين: فبعضهم يؤيد المستشرقين فيما ذهبوا إليه ويسوقون الأدلة على ذلك بوجود الصور على النقود التي كان يتعامل بها المسلمون مثل الدولة الأموية، وعلى السكة التي ضربها الأمويون والعباسيون، ثم بتلك الصور التي وجدت في بعض أبنية الأمويين والعباسيين والسلاجقة، وبعضهم يرى أن التصوير كان مكروها في الإسلام

في النفوس أن نؤمن بتأثير الكلمة السيئة فيها أيضاً؛ فإن المعاني إذا كسيت الألفاظ الرائعة، والنظم البارع كانت حبيبة إلى كل نفس، وكانت مداخلها إلى النفوس خفية، ونقضها للطبائع المحكمة عظيما. ولأمر ما حذر النبي (ص) من كل منافق جهول القلب عليم اللسان.

وإذا دار الأمر بين تعليم اللغة من سبيل هذا الأدب الزائف وجهلها — اخترنا جهلها، لأنه خير لنا أن نعرب في أفعالنا ونلحن في أقوالنا من أن نعرب في أقوالنا ونلحن في أفعالنا

الآن أشعر بما يشعر به من كان يحمل حملاً ثقيلاً فشى به أميالاً في صحراء محرقة حتى ارفض عرقاً، وتقطعت أنفاسه تعباً، ثم بلغ به مستراحاً ومقيلاً، فرمى بحمله وجلس بجانبه، فشعر بالراحة من ذلك الحمل الذي بهظه وأنقض ظهره.

أشعر بذلك لأنه كان حملاً ثقيلاً تلك الأمانة التي أخذ الله على العلماء ألا يدخروا نصحاً ولا يجدوا سبيلاً لرفع أممهم إلا أرشدوهم إليه، ونبهوهم عليه، وقد كان يحزنني أن تعلمني التجارب ما علمتني من قيمة القواعد في تعليم اللغة، وضرر الشغل بها عن علوم الحياة ثم أكتمه ولا أبوح به. والآن ولله الحمد قد خرجت من عهدة الكتمان، فبحت به، ولم أكتف بالبوح حتى أعلنته، ولم أكتف بالإعلان حتى دللت عليه. ولم أكتف بالتدليل حتى صرفت القول على وجوه شتى من التزيين والتقبيح والترغيب والتحذير. الآن وضعت الحمل وحمله آخرون.

محمد فريد

وهذه الكراهية ترجع إلى عصر النبي وسنين لم ينظروا إلى التصوير نظرة الارتياح؛ ولذلك لم يكن مجالاً لنشاط أغلب فنانيهم . على أن الذين ترخصوا فيه زاولوا رسم الأحياء في كل العصور الإسلامية تقريباً : في القرن الثاني بعد الهجرة في قصير عمرا ، وفي القرن الثالث في قصور (سر من رأى) ، وفي القرن الرابع في الحمام الفاطمي بالقاهرة ، وفي القرن الخامس في مدينة الزهراء ، وفي القرن السادس في قصر الحمراء ، وفي القرن السابع في ديار بكر وقونية.

صورة مسطحة على الورق تمثل المعراج القرن العاشر الهجري
من كتاب الفنون الايرانية في العصر الاسلامي للدكتور زكي محمد حسن

وفي هذه الأمثلة التي ذكرناها صور آدمية وحيوانية مسطحة ومجسمة تنطق بأن الفنان المسلم في هذه الناحية قد أجاد إجادة نسبية بالقياس إلى عصره .

على أن عبقريته الفنية لم تتجل في هذه الناحية بقدر ما تجلت في المخطوطات ، فقد شغف المصورون المسلمون بتجميل المخطوطات وتزيين كتب العلم والدين والأدب والتاريخ والصناعة بصور تفسر ما تتضمنه من بحوث وحوادث وما تتناوله من الآلات والحيل الميكانيكية .

فكراهية التصوير كان لها أثر بعيد في الفن الإسلامي إذ كان عاملاً فعّالاً في نضوج تلك الزخارف الإسلامية الرائعة التي لم ينتج مثلها فن من الفنون السابقة على الإسلام أو اللاحقة له .

(يتبع)

محمد عبد العزيز مرزوق